لغة التعليم في الجزائر في ظل مجتمع المعرفة

بقلم الأستاذ: أحمد ناشف

أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة

مقدمة:

إن تجربة التربية والتعليم المتواضعة في بلدان المغرب العربي بعد الاستقلال تمثل حقلا سوسيولوجيا يسهل على الباحث ولوجه وتحليله، ومعرفة أوجه النشاز فيه نظرا للتركيبة التاريخية والحضارية لهذه الأقطار، والتي مرت بنفس ظروف الاستعمار والتغريب، حيث لا يمكن الجزم بوجود فكر تربوي، أو مشاريع تنموية متكاملة تراعي خصوصية المدرسة ومطامحها المعرفية، من حيث النظري والتطبيقي، من حيث الوعي وإرادة تمثل هذا الوعي، ويبقى السياسي والديماغوجي هو المسيطر أما المفكر والباحث فيصاب بالنكوص ويكتفي بالتعليق أو الانزواء.

ينطبق هذا الوصف على مسائل تنموية وحضارية متعددة أهمها تجربة التعريب في التعليم والمحيط وما تثيره هذه المسالة من تحفظ خاصة في ظل الوضع الذي تعيشه المجتمعات العربية، والذي انعكس على العربية كلغة في واقعنا، والتي تترجم حال المجتمع العربي ككل من التأخر العلمي، لذلك بقي الحديث عن التنمية في هذه الأقطاب مرتبط بالشرط الثقافي، وبلغة التعليم بمعنى استعمال اللغة الوطنية في كل المجالات، خاصة المدرسة والجامعة كرمز للنتاج الفكري والعلمي أي:كيف تصبح لغة للعلم والمعرفة؟ وهنا تأتي مسالة المقارنة مع الأخر المتقدم، وتبدأ النظرة اليائسة إلى الذات من خلال الغير.

وهنا نتساءل عن الأفاق المعرفية للتعريب في ظل مجتمع المعرفة واقتصاد المعرفة، وهل يمكن اعتبار اللغة عاملا أساسيا للتنمية وللمنظومة التعليمية في الجزائر،ودول المغرب العربي الأخرى؟ ثم ماذا قدم التعليم باللغة الأجنبية من خدمة تنموية مقارنة بالتعليم باللغة العربية، وهل يتناقض ذلك مع الهوية والأصالة والاستمرارية الحضارية؟ وما السبيل إلى إحداث نقلة معرفية بمشروع تربوي حضاري متكامل تكون المدرسة والمحيط المنطلق الأساسي له؟

***اولا–اللغة والتربية:**

إن الحديث عن اللغة وتطورها وعن مستوى أدائها الاجتماعي والمعرفي، لا يمكن فصله عن التربية وتطورها عبر الأجيال، فلما كان موضوع التربية هو الإنسان، بجسمه، وعقله، ووجدانه، واتجاهاته، وقيمه،ومعارفه، ومهاراته، فان هذا الإنسان لا يمكن عزله عن سياقه الاجتماعي الذي يعيش فيه، بل انه يتفاعل داخل بيئة ثقافية اجتماعية متأثرا بتقاليدها وموروثها وعاداتها وطموحاتها.

وتعرف التربية عموما بأنها تلك المساعي والجهود الاجتماعية المقصودة، وغير المقصودة، المباشرة وغير المباشرة، المخططة وغير المخططة التي تحدث في مجتمع ما، وفي زمن ما، ومن خلال كل مكونات المجتمع ونظمه ومؤسساته، والتي يكون من نتيجتها نمو الفرد نموا شاملا متكاملا بما يفي بحاجاته ويجعله أكثر توافقا مع نفسه ومع متطلبات المجتمع وأهدافه.

وتقع اللغة في صميم العملية التربوية سواء أكانت مقصودة من خلال المدرسة والمؤسسات الثقافية الأخرى، أو غير مقصودة عندما يتعلق الأمر بالتأثير والتأثر الاجتماعيين نتيجة التواصل، والاحتكاك اليومي بين الأفراد والمجتمعات. لهذا فالعلاقة التي يمكن رسمها بين اللغة كوعاء، والتربية كفعل هي علاقة اللزوم والتضايف المستمر، حيث لا يمكن تصور تربية بدون لغة تسهم في نقل تراث الأجيال المتعاقبة إلى بعضها البعض،وتحصيل المعارف على اختلافها وتنوعها، وفي التواصل الاجتماعي وسبل الارتقاء به، فالخطاب المعرفي والقيمي لا يمر إلا عبر وسيلة اللغة.

والتربية من هذا المنظور هي "جزء من الوجود الإنساني تماما كالفن والعلم واللغة، فيتحتم إذن أن تكون هنالك فلسفة للتربية بالطريقة نفسها التي فيها جمالية ومبحث علوم وفلسفة اللغة" فالإنسان يتميز باللغة أو بالثقافة "والحال انه لا وجود لعمل أو للغة أو لثقافة بغير تربية"[1] لهذا السبب قال "كانط" إن ما يميز الإنسان عن الحيوان هو أن "الإنسان لا يستطيع أن يصبح إنسانا إلا بالتربية"[2]

ولما كان فعل التربية هذا حق من حقوق الإنسان بمجرد مجيئه إلى هذا العالم ،فان اللغة هي الوسيلة الاجتماعية، والموروث المتجدد الذي يحمل معنى التربية، وأهدافها وغاياتها وسبل الإبداع فيها، واللغة وحدها التي تجعلنا نميز أي تربية نختار للناشئة، وأي القيم ننقلها إليه،وبأي طريقة نلقنها له وماذا نرجوه منه.

إن تأملنا للمشروع التربوي الأفلاطوني مثلا،يوحي لنا تمرده على"لا معقولية التربية التقليدية وتضليل التعليم السفسطائي"[3] الذي جعل من الخطاب اللغوي البارع سبيلا لنشر تعليم يعتمد على اللفظية دون الاهتمام بمعقولية الفعل التربوي.

إن تاريخ التربية يثبت لنا مدى ارتباط العملية التربوية والتعليمية باللغة التي يتكلمها المجتمع، وما تحمله من ارث حضاري وزخم معرفي، فكانت على الدوام الأداة الرئيسية لتواصل الأجيال، وإبداعاتها، كما يثبت لنا في المقابل ضعف الأداء المعرفي، وصراع الأجيال عندما تندثر المنظومة التربوية، ويضعف المحصول اللغوي لدى الأفراد والمجتمعات، لهذا ارتبطت اللغة بمستوى أدائها المعرفي لدى الناطقين بها، وبمدى تعبيرها عن ثقافة المجتمع واحتكاكه الحضاري.

لهذا لم تعد التربية في الوقت الراهن مجرد نقل تراث ومعارف إلى الأجيال الجديدة بطريقة تلقائية (عفوية)، بل أصبح من الضروري توجيه الناشئة كي "يعبروا عن أفكارهم تعبيرا جيدا واضحا دقيقا أنيقا"[4]، فمن غير اللائق أن يترك الفرد دون تعليم لقواعد اللغة، وفن التعبير عن الفكر والإبداع،ولكي تتاح له فرص الاندماج في السيرورة الثقافية لمجتمعه وعصره.

لقد أوكل الأمر إلى المدرسة في العملية التربوية باعتبارها البيئة الثانية بعد الأسرة وفيها يتعلم التلميذ اللغة التي ستكون وسيلته العقلية والتواصلية مع محيطه المدرسي، ومع البيئة الثالثة التي هي الشارع، والمحيط الخارجي، لهذا رأى "ديوي" انه من الضروري أن تثار في التلميذ غريزة اللغة وان تجذب اللغة إلى هذا التلميذ بطريقة اجتماعية ليتحقق اتصاله المستمر بالواقع، وان تتاح له فرص الاحتكاك اللغوي بالتعبير عن أحاسيسه وأفكاره الخاصة[5] فمن الضروري أن يدرك الناشئ أهمية اللغة التي يتعلمها وان يطور مهاراته فيها، وانه لا معنى لتعلم لغة دون إدراك ما تحمله هذه اللغة من معاني، وأفكار، وإلا سقط الفرد ومن ثم المجتمع في مشكلة اللفظية حيث تفرغ اللغة من محتواها الحقيقي لتصبح مجرد تنميق وكلام بلا معنى لا تعبر بصدق وبدقة عن المعرفة.

إن التربية في مجتمعنا النامي تعاني من عقدة التقليد، الأمر الذي جعلها تتخذ طريقة المقايسة عن الأخر الذي طور مناهجه التربوية ونوع مصادر الثقافة، واوجد جوا حضاريا راقيا مفعم بالتغيير البناء داخل ما يسمى "مخابر التربية"، الأمر الذي جعل لغة المجتمع النامي تضعف أمام الوافد الأجنبي واللغات المتطورة، حيث أصبح الأمر ملحا على وضع إستراتيجية تعامل مع هذه اللغات العالمية وتعليمها بما يتيح فرص التواصل،دون الانسلاخ عن اللغة الأم وما تحمله من القيم التربوية التي تمثل هوية الفرد والمجتمع.

***ثانيا:التعريب وتحدي الرهان العلمي:**

ليس من الغريب أن يكون الحديث عن الرهان العلمي في المنظومة التربوية الجزائرية أو دول المغرب العربي الأخرى مثار تساؤلات عدة تصب في إطار إمكانية تحقيقه في ظل التعريب أي

تدريس العلوم باللغة العربية، وهنا تطرح مشكلة إمكانية هذه الأخيرة في وضعها الموروث بعد الاستقلال لنقل المعارف العلمية خاصة إلى المتعلمين بها.

وفي سياق هذا التساؤل بالذات ليس المقصود عدم قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم، بل إن هذه العلوم التي استحدثت في بيئة مغايرة، وبثقافة مختلفة توجب نقلها إلى الناشئة، تطوير اللغة العربية وتيسيرها لتصبح قادرة على إيصال المعرفة بمصطلحات محددة ودقيقة، فالخطاب العلمي في دول المغرب العربي ظل لزمن طويل مقتصرا على اللغة الفرنسية، حيث لم يكن من السهل إقرار تعريب شامل للعلوم خاصة في الجامعة وهو ما أدى في كثير من الأحيان إلى التضحية بشعارات تعميم استعمال اللغة العربية وإجهاضها عند أبواب الجامعات التكنولوجية، لذلك وجد الطلبة المعربون صعوبة في الالتحاق بهذه الجامعات، لتكرس بذلك النظرة الفئوية عن طريق لغة التعليم.

إن وجود المجتمعات العربية في وضع المتلقي للمعارف الحديثة، والمتطورة جعلها تقع في مأزق المصطلح، والاشتقاق اللغوي خاصة بوجود تسارع علمي وتقني في العالم المتقدم، فهي ملزمة على التعريب المباشر، أو الاقتباس، أو الترجمة إن كان هناك مقابل لفظي للمصطلح، وفي كل الأحوال نتج نوع من التعارض للمفاهيم الذي تؤديه هذه الألفاظ الجديدة من حيث نقص الدقة والإبهام الذي يكتنفها[6] مما أبقى اللغة العربية في دائرة الدارسين والمتخصصين فقط، وأدى إلى التقليل من انتشارها بين الفئات ذات الثقافة المحدودة فأمست لغة النخبة وليست لغة المدرسة بمعنى الكلمة.

فهذا الواقع الذي يترجم معاناة اللغة من حيث مواكبتها للتطور العلمي، وانعدام أرضية عمل واتفاق اصطلاحي جعلها بين الأمرين، إما بقائها مبهمة، أو ضرورة تكييفها مع المستجدات العلمية، ذلك ما جعل اللغويين والباحثين ينبئون بالخطر على مستقبل اللغة العربية الدلالي والعلمي.

غير أن إبقاء تعليم العلوم الدقيقة باللغة الأجنبية لم يقابله بحث واجتهاد لغوي من اجل تحسين الأداء المعرفي للغة العربية، خاصة إذا علمنا أن اللغة العلمية " لغة متخصصة ومن خصائصها الدقة، والوضوح، ترتيب الأفكار، توخي الحقيقة، استحداث المصطلحات، تحديد الألفاظ، توظيف المختصرات، استعمال اللغات المتخصصة، إضافة إلى بساطة الأسلوب وقبوله النمو اللغوي"[7] وهنا نتساءل مع "صالح بلعيد"هل اللغة العربية في وقتنا الحالي تسير وفق النمط العلمي؟

في الواقع أن اللغة العربية لم تكن محل تشكيك من حيث المبدأ، وليس هناك من هو في مستوى هذا التشكيك نظرا لما أدته هذه اللغة من وظائف عقلية وعلمية وحضارية وأدبية عبر التاريخ ولم يعوزها كثرة المصطلحات المستجدة أو الواردة من مختلف اللغات، حيث تفاعلت معها دون أن تفقد خصوصيتها، وذاك لما توفرت شروط الإبداع العلمي والفني، وفي الوقت الحاضر نجد أن

اتهامها بالقصور هو بمثابة التعبير عن العجز وقبول الحلول البسيطة والسهلة، ومن هنا يقع على المجتمع العربي بباحثيه ولغوييه الاهتمام باللغة العربية وتيسيرها قصد تغيير النظرة التي انطبعت في ذهن الناشئة حول صعوبتها، وان يتم تيسير تدريس العلوم والمعارف المختلفة، بدعم البحث العلمي باللغة العربية، ودعم دور النشر والترجمة العلمية.

إن بقاء اللغة العربية في دائرة التعبير الأدبي دون العلوم الحديثة جعل من التلميذ في المدرسة، والطالب في الجامعة، يقيم نوعا من الموازنة الحضارية المريبة، ذلك انه عندما يبحث عن كتاب مؤلف باللغة العربية في موضوع علمي يجد صعوبة في ذلك، وان عثر عليه فيكون بلغة صعبة أحيانا وبمصطلحات مختلفة أحيانا أخرى فلا يستوفي غرضه العلمي.أما بالنسبة للأستاذ الباحث فيعمد إلى الكتب باللغة الأجنبية دون عناء ترجمتها الفورية لتكون سندا معرفيا لهذا الطالب أو التلميذ، وهنا نكون أمام مأزق أكثر تعقيدا مأزق البحث ومأزق لغة البحث، وفي المقابل لا نجد اهتماما كبيرا بالمشكل اللغوي من طرف الهيئات القائمة على المؤسسات التربوية، وكل ما هنالك هو بحوث وملتقيات موسمية، تفتقد للفعالية وقوة الطرح.

هذا الوضع نكاد نجده في كل الأقطار العربية من منظور تدريس العلوم، غير أن الأمر يختلف في المغرب العربي، وفي الجزائر خاصة لأنه يتعلق بثنائية الطرح داخل المنظومة التربوية، بين استعادة أصالة المدرسة وعصرنتها–وإذا كان مفهوم الهوية يقصد به "ما يجعل الشيء هو هو أي ما يميزه عن غيره من الأشياء والنظائر، ومن ثم يرتبط المفهوم بما هو جوهري وثابت في الشيء مقابل ما هو عرضي ومتغير وزائل–"[8] فانه فيما يتعلق بالإنسان داخل المجتمع الجزائري هو كيفية صياغة الفرد من حيث انتمائه، وبين تكوينه معرفيا كي يؤدي وظيفة داخل هذا المجتمع في إطار التنمية والتحديث من وجهة علمية وبيداغوجية، ويصبح الأمر مجرد قولبة للفرد إيديولوجيا في غياب المدرسة المتكاملة من حيث الوظائف، هذه المفارقة الحقيقية لم تطرح بشدة إلا في بلدان المغرب العربي لوجود تقارب في الطرح، وقد يساعدنا تحديد العقبات التي أعاقت مشروع التعريب الشامل على توضيح الرؤية أكثر لدى الباحث في هذا المجال.

1/ عقبات ميتا لغوية أمام قيام التعريب الحقيقي:

***–عقبات تتعلق بالماضي الكولونيالي:**

إن الجزائر على غرار بلدان المغرب العربي (تونس والمغرب) عانت من تغريب رهيب مس كل المجالات، وأصبح يشكل عبئا ثقيلا يقف في وجه كل محاولة للتنمية، فالاستعمار "بكل مظاهره وأشكاله قد أحدث تمزقا في وعي الضمير العربي، لقد أيقظ التحدي الاستعماري الغربي الأمة العربية من غفوتها، فرات في علوم الغرب وتقنياته ومؤسساته الاجتماعية والسياسية مثال التقدم ونموذجه "غير انه في رأي الجابري "هذه المجتمعات ترى في هذا الغرب النموذج، ذلك المستعمر الذي سلبها الحرية والثروة، والهوية والأصالة، بل ويهددها في وجودها"[09] ويضعنا "ألبير مامي" أمام الصورة الحقيقية لتأثير الاستعمار على المستعمر قائلا "طالما أن المستدمر يتحمل الاستدمار فان البديل الممكن له هو إما الاندماج وإما التحجر، وبما أن الاندماج مرفوض له...لن يبقى له إلا أن يعيش خارج الزمن"[10] هذا الوصف ينطبق إلى حد معين على أوضاع المغرب العربي حتى وان كان الانقطاع عن الماضي ليس تماما فقد بقيت بعض المنارات مثل القرويين والزيتونة وجمعية العلماء المسلمين فيما بعد في الجزائر، تشع بالتراث العربي الإسلامي. غير أن الازدواجية بقيت مفروضة بل "وضرورية في الظرف الكولونيالي"[11] هذا الوضع ورثته المدرسة الجزائرية وحتى في المغرب وتونس، رغم الاختلاف من حيث المراكز العريقة لهذه الأخيرة، فإنها –اللغة– بقيت منقطعة عن حاضرها ويخلو محتواها من المضامين العلمية الحديثة، وأصبح على عاتق هذه المدرسة استعادة اللغة كهوية واللغة كأداة للتدريس .

***– عائق الفصام الاجتماعي والنفسي:**

وهنا نعود إلى" ألبير مامي" في مفهومه للازدواجية "ازدواجية اللغة في واقع الاستدمار لا تقارن بأي ثنائية لغوية، وامتلاك لغتين لا يعني فقط امتلاك أداتين بل هو الاشتراك في مملكتين نفسية واجتماعية"[12]، فالنخب المثقفة على قلتها ارتبطت باللغة الفرنسية أيما ارتباط، وأصبحت تنظر إليها كلغة حضارة ولغة التقدم، مقابل اللغة العربية التي هي لغة المتخلفين، وهو أمر لا يستهان به، بل واقع اجتماعي ونفسي، حيث انقسمت هذه النخب إلى منادية بالتحديث والحداثة على شاكلة الغرب المتقدم، وإلى تيار محافظ ينادي بالأصالة لكنه لا يعي حقيقة هذه الأصالة. وقد ترجم هذا الوضع النفسي والاجتماعي حال الأسرة الجزائرية من حيث المستوى اللغوي، وحال الإدارة، والمحيط،

والجامعات، وهو وضع ينبئ بخليط لغوي، وأحيانا أمية لغوية.هذا بالإضافة إلى النظرة الاجتماعية للغة من حيث القيمة، لغة الارتقاء الاجتماعي (الفرنسية)، ولغة القيم والأخلاق (العربية).

***– عائق ازدواجية الشخصية:**

وهنا نقف مع طرح "الاشرف"حول مشكلة النظر إلى التراث أو الأصالة وهو طرح يقترب من منظور " الجابري"في قوله" نحن اليوم المتخلفون عن جيراننا شمال البحر الأبيض المتوسط فريقان: فريق يعيش المستقبل في تراث الغرب وفلسفته، وفريق يعيش المستقبل في ماضي الغرب وتراثهم"[13] هذا الوضع الفكري المتناقض الذي تميزت به النخب الفكرية جعلها تبتعد عن واقعها وعن بقية فئات الشعب،في وقت كانت هذه الفئات بحاجة إلى التوعية والى مشروع تربوي يخرجها من أزمتها الحقيقية بمعنى إدخالها في إطار الزمن وليس القفز فوق الزمن، ثم أن تجربة استيراد المعرفة الجاهزة من الأخر، المسيطر والمتفوق جعله دائم الحضور في أذهاننا، على أساس انه المثال والمعيار دون الرغبة في تطوير أو حتى تكييف المعرفة وفق اللغة والبيئة المستقبلة.

***– عائق تفوق اللغات الأخرى:** إن رغبة المجتمعات الحديثة الاستقلال مثل الجزائر في التنمية والتحديث وفي الآن ذاته استعادة اللغة العربية لمكانتها في كل المجالات ونخص بالذكر مجال التعليم، جعلها تقع في مشكل الكفاءة وهو أهم عائق أمام التعريب الشامل للتعليم، فحاجة المؤسسات الاقتصادية والإدارية إلى الخبرة العلمية والى تكوين تقنيين أكفاء هو الذي فرض في الأخير التعامل مع اللغة الفرنسية كلغة عمل، ومن ثم إرجاء اللغة العربية إلى غاية حصولها على مواصفات لغة التفاهم العلمي والتقني وكذا البحث العلمي[14]، كأن اللغة بهذا المنظور تتطور وتنمو خارج الاستعمال اليومي لدى أصحابها.

ثم إن اعتماد الجزائر على الخبرة الأجنبية في المجالات الطاقوية وكذا المؤسسات الصناعية جعل اللغة العربية لا تحتك بهذا الجانب، فمن جهة هناك تعامل سلبي غير معلن من طرف المنادين بالتعريب مع لغتهم، ومن جهة أخرى كانت تعوزهم الخبرة العلمية، حيث بقيت مهامها محصورة في الخطابات الرسمية، لهذه الأسباب بقي المتعلم، والمثقف في البلاد العربية يعاني من مشكلة اللغة المتطورة، التي فرضت نفسها كضرورة حضارية، ثم لأنها تحمل المعرفة الجديدة العصرية، غير انه – المتعلم– لم يجد في معظم الأحيان السبيل الأنسب لتدارك النقص الذي يعانيه على مستوى المعرفة وخاصة العلمية منها.

وإذا كان تعليم أية لغة لا يتم إلا بتوفر مهارات بداية من الاستماع إلى القراءة ثم الكتابة، فإن الطفل في المدرسة الجزائرية يعاني الحرمان من هذه المهارات، سواء من حيث النطق أو الاستماع، فهو ينطق الألفاظ محرفة ويستمع كلمات أجنبية، كل ذلك يؤثر على الملكة اللغوية وما تحمله معها من معاني وأفكار. كما يجد المتعلم صعوبة في استيعاب بعض المصطلحات في اللغة العربية والتي لم تعد تؤدي وظيفتها الدلالية في الوقت الراهن لكثرة المستجدات العلمية، ومن هنا كان لزاما إعادة النظر في المعوقات اللغوية للغة العربية[15] .

وأمام كل هذه التحديات فان المثقف لم يخرج عن صمته أمام ما يحدث للغة العربية في الوقت الراهن، ويدل هذا على وجود نوع من الانهزامية والتخلي عن الواجب وعلى أن المشكل ليس في اللغة وإنما مشكلة فكر، أما عن المثقف الجزائري بعد الاستقلال، فان لغته متواضعة ولا يملك رصيدا اصطلاحيا كافيا للتعبير والإبداع، منقسم إلى فئتين فئة تتكلم اللغة العربية، لكنها قاصرة عن وضع مشروع تعليمي عصري نظرا للوضع الذي تعيشه سواء على المستوى المحلي، أو خارج الوطن، وفئة أخرى ورثت اللغة الفرنسية عن المستعمر غير أنها لا تملك الفعالية وليس لها تكوين حديث، إنها لا تعبر عن أمال الأجيال الجديدة كونها مرتبطة مسبقا بالمستعمر.

***ثالثا–اللغة ومجتمع المعرفة:**

لقد ظل الاعتقاد في الفلسفة أن المعرفة معطى عقلي بحت ليس للأطر الاجتماعية أي دور فيها، لكن مع مطلع القرن التاسع عشر ظهر علم الاجتماع المعرفة حيث لم تعد دراسة ماهية المعرفة مسألة فلسفية بحتة بقدر ما أصبحت مسألة اجتماعية، فللمعرفة أصول وسياق اجتماعيان يؤثران فيها، بحيث ظهرت دراسة العوامل الاجتماعية للمعرفة[16].

من هذا المنظور وفي ظل التدفق الهائل للمعارف،أصبح من الضروري ربط المعرفة بثقافة المجتمع ولغته الحاملة لهذه الثقافة والمعبرة عنها، فاللغة العربية تعكس الشخصية والثقافة العربية الإسلامية واللغة الفرنسية تعكس الشخصية والثقافة الفرنسية فاللغة رغم انتشارها العلمي فإنها تحافظ على الخصوصية. لذلك فانه لكل ثقافة طرقها التقليدية الخاصة للوصول إلى المعرفة ولا يمكن للتقدم أن يتحقق بصورة جذرية إلا بالخلق والدعم حسب سياق ينمو داخل هذه الثقافة، لذا كان لزاما على المجتمعات النامية مسايرة الركب العلمي، لكن هذا الأمر طرح قضية نقل المعارف والعلوم المختلفة إلى الناشئة خاصة لدى الدول العربية، لأن هناك بون شاسع بين ما ينتجه الغرب بلغته ومصطلحا ته، وبين المستوى الفكري، واللغوي العربي، فنقل العلوم والمعارف يتطلب لغة راقية وتحديد

اصطلاحي، ولما كانت اللغة العربية تعاني من ويلات التعجيز من طرف أهلها، فإن هذا الوضع قد كرس لدى الأجيال نوعا من القطيعة مع الماضي(التراث) ليستجيب إلى الوافد الثقافي دون إرادة الإبداع الحرة"[17] حيث تكون لدى المتعلم فكرة سلبية عن مستقبله، إذا ما هو واصل تعليمه بهذه اللغة، والحقيقة أن الأمر الواقع الذي تكرس من خلال المدرسة ومن خلال اللغة وما تحمله للمتعلم من معارف، في مجال الأدب والدين والأخلاق هو التقليد والسرد والحفظ" فصارت المخرجات التعليمية الجامعية عبارة عن جيل من التابعين والمقلدين لاحظ لهم من العلم إلا تاريخ علوم الآخرين وسطحيتها"[18]، ولما كان من المتعارف عليه أن تأصيل العلوم والمعارف لا يتم إلا باللغة التي يتكلمها المتعلم، وتمثل له اللغة الأم" فإن لحاق البلاد العربية بالحضارة العلمية المعاصرة ومواكبتها لها، ثم مشاركتها فيها، يجب أن يبدأ باستخدام اللغة العربية لغة للتدريس وإعداد المصطلحات العلمية الموحدة لذلك"[19]، أما إذا كانت المعلومات العلمية متوافرة بلغة أجنبية فقط فإن نخبة محدودة من الشعب تتمكن من الاطلاع عليها، ويبقى الشعب مستهلكا لها دون تمثلها وتوطينها والإبداع فيها[20].

في المقابل نجد الكثير من التجارب اللغوية في العالم قد حققت نجاحا باهرا بفضل وجود إرادة لدى أصحابها ومسئوليها في النهوض بها، ومن ذلك تجربة اللغة العبرية و اللغة اليابانية، رغم ما يعتري هذه اللغات من نقص اصطلاحي "فالتجارب اللغوية المعاصرة في العالم تثبت أن دءوب أصحاب اللغة على الأخذ بها وإشاعة استعمالها في كل الميادين كفيل بتمكينها من الوفاء بحاجات العصر المتطورة"[21]، فاللغة العربية قادرة "بحكم طبيعتها وخصائصها وتراثها الذي أسهمت فيه في الحضارة الإنسانية على أن تكون لغة العلم الحديث تدريسا وتأليفا وبحثا"[22].

لكن السؤال كيف يتأتى ذلك خاصة في زمن المعرفة أو ما يعرف باقتصاد المعرفة؟ إننا نعيش عصر المعرفة أو مجتمع اقتصاد المعرفة، حيث ارتبط تحقيق التنمية في المجتمع بمدى استيعاب المعرفة، وإنتاجها، ونشرها ثم توظيفها في كل مجالات النشاط المجتمعي سواء في الاقتصاد أو في السياسة أو المجتمع المدني،وأصبحت المعرفة مرتبطة أشد الارتباط بالمجتمع الذي ينتجها "ثقافة المعرفة"، "اقتصاد المعرفة" والمعرفة في هذا السياق نقصد بها"كل المعطيات والمعلومات والتوجيهات والأفكار أو مجمل البنى الرمزية التي يحملها الإنسان، أو يمتلكها المجتمع في سياق دلالي وتاريخي محدد، توجه السلوك البشري على مستوى الفرد والمؤسسة، في كل مجالات النشاط الإنساني"[23]، وتعتبر اللغة مدخلا محوريا لتمكين المجتمع من تحقيق التنمية، باعتبارها أداة لامتلاك وإدراك المعلومات ونقلها والتفاعل

معها، فاللغة من هذا المنظور "وسيلة لربط الإنسان بواقعه على العموم وبتدفق المعارف والمعلومات فيه على الخصوص"[24].

وتكون بذلك بعيدة عن الحياد السلبي لاعتبارين متلازمين:

يؤكد العلماء أن اللغة مؤثرة في المعارف المنقولة عن طريقها، بغض النظر عن قيمة هذه المعارف، ونوعيتها، ومصدرها ويتعلق الأمر هنا بالقدرة على دقة صياغة المعلومات والمعارف وسلامة التعبير عن المفاهيم، وهذا ما يتطلب تنمية اللغة ومستوياتها التعبيرية من عدة نواحي.

– **أولا**: تطوير البحث العلمي في اللغة من أجل توفير لغة العلم لتكون أداة فعالة في يد المتعلمين والمثقفين وغيرهم.

– **ثانيا**: توفير الأدوات العلمية العصرية الكافية تربوية كانت أو عامة[25] أو ذات التخصص العلمي.والملاحظ أن اللغات الأجنبية قد طورت معاجمها بصورة مذهلة، عكس المعجم العربي الذي يعاني قصورا من شتى النواحي حيث بقي محافظا على مادة معجمية قديمة، دون تجديدها وفق التقنيات والعلوم الحديثة. ومن ناحية المعنى فالأمر يتعلق "بما توفره اللغة من بنيات تصورية وما تقتضيه من ظلال للمعاني وقيم فكرية وثقافية وحضارية"[25]، وإن كانت اللغة العربية غنية من حيث المعنى فإنها بحاجة إلى الاغناء، والتحديث في جانبها المفاهيمي والاصطلاحي، أي تكوينها المستمر عن طريق الاستفادة من الاتصال باللغات الأخرى وما تحتويه من تجارب علمية وحضارية خاصة اللغات المتقدمة، وذلك عن طريق الترجمة والتي تكتسي أهمية إستراتيجية كبيرة لا توليها البلدان العربية أهمية كبيرة مثل ما هو في الجزائر، حيث لا توجد مراكز ترجمة عليا للكتب والبحوث المستجدة، التي تساهم في بلورة المادة اللغوية وتطويرها وإعطائها حيوية ونشاط دلالي علمي، وكذلك وضع إستراتيجية مدروسة لعملية تقبل وتكييف المعارف بلغة محددة من حيث الدلالة والاصطلاحات، كل ذلك من شأنه الرفع من مستوى الأداء المعرفي للغة.

في الجانب الثاني نجد أن لنوعية المعرفة تأثيرا كبيرا في اللغة التي تعبر عنها، وذلك من عدة جوانب، "فالمعارف الفنية ذات القيمة العالية تخدم اللغة على المستوى النسقي بإثراء متنها عبارة ودلالة كما تخدمها على المستوى الوظيفي بتوسيع وظائفها المعرفية"[26]، من أمثلة ضعف الأداء المعرفي للغة نجد الكتاب المدرسي في الدول العربية ومثال ذلك الجزائر، حيث مازال يغلب عليه الطابع الانعزالي بين ما يحمله من مضامين معرفية، وبين اللغة المعبرة عنها، حيث يقدم مادة جامدة لا تخدم المهارات اللغوية الإبداعية، ولا تطوير القدرات المعرفية، والتواصلية، حيث تحولت بذلك

العملية التعليمية إلى مجرد تلقين يكاد يخلو من التواصل"واعتماد نصوص غير قابلة للنقاش تشيأت فيها المعرفة، وبدت حقائق مطلقة،وامتحانات لا تقيس إلا الحفظ و التذكر"[27].

***–الازدواجية اللغوية والازدواجية الاجتماعية:**

وفي هذا السياق الاجتماعي المعرفي نطرح مشكلة الازدواجية اللغوية في الجزائر، إذ يشير الواقع السوسيو لساني للمجتمع الجزائري إلى نوع من الثنائية اللغوية غير المتكاملة، فبالإضافة إلى اللغة العربية توجد مجموعة من اللهجات (الأمازيغية)، وكذا اللغة الدارجة، والتي تمثل نوعا من الثنائية الموروثة نتيجة اللحن،واختلاط الشعوب العربية والامازيغية بعد الفتوحات الإسلامية، ومن أبرز هذه الازدواجيات هي الموجودة بين لغة التعليم الأساسية في المدرسة، ولغات الاستعمال اليومي في الحياة الاجتماعية.

غير أن من أخطر مظاهر الازدواجية اللغوية هو وجود اللغة الأجنبية بجانب اللغة الوطنية في المدرسة، واللغة الأجنبية تمثل الأخر المستعمر والمتحضر، وهي أداة تعلم واكتساب التكنولوجيا، والاتصال بالعالم المتطور، بالإضافة إلى ذلك فقد تكتسب هذه اللغة مكانة الصدارة في المرافق الحساسة، وقد تكون اللغة الوحيدة للاستعمال في بعض المجالات.

هذا الصراع لم يعد مطروحا بشكل أساسي في كل من تونس، المغرب، ليتحول إلى نوع من الإخصاب الثقافي والمرونة اللغوية حيث استطاعوا "الانتصار على التوازي القائم عندنا بين الثقافتين العربية والفرنسية دونما حساسية، فقد حولوا هذا التوازي إلى تقاطع فاعل بين الثقافتين"[28]، متجاوزين بذلك النظرة الأحادية أو ترسيخ القطبية ويظهر ذلك جليا من خلال الكتاب خاصة على مستوى المنهج وطرائق البحث، ومن ذلك نجد مشروع محمد عابد الجابري في استخدامه للمنهج الحفري (الأركيولوجي) عند فوكو في كتابه"تكوين العقل العربي".

إن السؤال الذي ينبغي أن نطرحه في هذا الصدد هو هل لغة العلم هي التي تصنع التقدم أم هي التي تعرقله؟ وهل استبدال اللغة الأم بلغة أجنبية في تعليم العلوم ونقل المعارف هو الحل الأنسب للحاق بركب الحضارة العالمية؟ أم أننا سقطنا في مقولة ابن خلدون" المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله"؟[29].

والواقع أن هناك فجوة عميقة بين واقع اللغة العربية ومستقبلها المرغوب، ودعاة هذه الفجوة يحملون قناعة مضللة مفادها أن العجز والتخلف مضروب علينا بوساطة هذه اللغة متناسين أن أصل المشكل يكمن في متكلميها.

وإذا نحن تعمقنا مع "محمد عابد الجابري" في منهجه النقدي للفكر العربي فإنه يرجع أصل النزاع بين دعاة الأصالة ودعاة التحديث إلى "كون الفريق الأول يفكر من داخل نظام معرفي محدد هو الذي تحمله معها اللغة العربية منذ عصر التدوين، أما الفريق الثاني يفكر بواسطة عناصر من نظام معرفي أخر انتقل وينتقل عبر الترجمة، عبر القراءة، والدراسة باللغات الأجنبية ويتساءل "الجابري" هنا عن دور الإيديولوجية في هذه الحالة؟ "ألا يكون الخلاف الإيديولوجي.مجرد غطاء للاختلاف في نظم المعرفة بل ربما لنقص في المعرفة؟ "[30].

هذا الوضع هو الذي خلف واقعين متضادين أو قل مجتمعين متراكبين كل واحد له من يناصره، واقع متغرب في تشبثه باللغة الأجنبية، وواقع متعرب في تمسكه بدفاعه عن اللغة العربية، وبين هذا وذاك هناك طرف ثالث يسعى رغم تواضعه إلى تفعيل اللغة العربية وجعلها لغة تحاور علمي، واستغلال ما في اللغات الأجنبية من ثروة معرفية دون غرور إيديولوجي.

إن أكبر تحدي تواجهه اللغة العربية لتخرج من عالم الصراع المفتعل هو التحدي العلمي والمعرفي، وإذا كنا "الآن لا ننتج علما وإنما نستهلك بعض العلم الذي ينتجه الغير وأحيانا نستهلكه استهلاكا غير سليم"[31] فإن السؤال الحقيقي الذي ينبغي أن يطرحه المعربون "ما هي الطريقة التي تمكننا من وضع المستجدات والمستحدثات العلمية في أوعيتها، وقوالبها اللغوية، لتجعل من لغتنا ذخيرة لفظية تلاحق حركة التجديد والتطور التي يعرفها العالم"؟[31]، وكيف يمكن أن نستخلص من أفكار غيرنا ما يمكننا من إلقاء أضواء جديدة على هذه اللغة لاستيعاب كنوز المعرفة من ينابيعها الأصلية واستقصاء طرائق النظر العلمي الحديث؟[32].

إن عدم وعي القائمين على أمر التعريب بأدوار اللغة ومستوياتها وما يمكن أن تؤديه في حياة الأمة، هو الذي جلب لها المصائب، فالكثير منهم يعتقد أن اللغة مجرد أداة تواصل والتعبير عن أغراض الناس، وحوائجهم، غير أن الدراسات اللغوية الحديثة تؤكد أن للغة عدة وظائف بالإضافة إلى التواصل، ومن أعمقها أنها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه، وصياغته صياغة تجعله مختلفا عما هو في مجتمع أخر يقول الفيلسوف الألماني "هردر" لا يمكن أن نشك في أنها–اللغة– هي التي تخلق العقل، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيرا عميقا وتسدده وتوجهه اتجاها خاصا"[33] وعن العلاقة الوطيدة بين فكر المجتمع ولغته يقول "ادوارد سابير" إن اللغة هي التي تجعل مجتمعا يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكر بها وأن ذلك المجتمع لا يستطيع رؤية العالم إلا من خلال لغته وأن تلك اللغة بمفرداتها وتراكيب جملها محددة في ذاتها لنظر المجتمع المتكلم بها للعالم وللحياة"[34].

إن الحل النهائي لإشكالية التعريب هو أن يتحول المتعلم في المجتمع العربي من مستهلك لما ينتجه غيره من علوم ومعارف إلى منتج حقيقي وبلغته "إذ" المعروف أن الأمم المتقدمة غربية وشرقية قد سبقتنا، وفرضت علومها وإنجازاتها ومصطلحاها ونحن بحاجة إليها وإلى لغاتها"[35]، إن الاستقلال اللغوي مرهون ومرتبط بالاستقلال العلمي، وإنتاج المعلومات وهذا لا يعني الانعزال عن الأخر ولغته وعلومه بل المطلوب هوأن يكون في المجتمع الجزائري علماء وخبراء يفكرون بالعربية و يصطلحون بالعربية ويكتشفون بالعربية وليس مجرد خطباء.

أصبح التمكن اللغوي في مجتمع المعرفة اليوم شرطا ضروريا لتحصيل العلوم والمعارف على اختلافها، ويعود ذلك إلى موجة العولمة الجارفة التي لم تعد تقيم اعتبارا للقومية أو الدولة الوطنية وكذا الايدولوجيا المضادة، ولم يبق الأمر منحصرا في عولمة النشاط الاقتصادي فحسب، بل انتقلت إلى "نظام عالمي– أو يراد لها أن تكون كذلك يشمل أيضا مجال السياسة والفكر والايدولوجيا"[36] وهكذا انتقلت العولمة من منظور اقتصادي تنافسي إلى مجالات أكثر خصوصية بالنسبة للمجتمعات على اختلافها، خاصة إذا علمنا أن هذه الموجة مصدرها الدول المتطورة والمجهزة بأحدث تقنيات الاتصال والإعلام.

والإشكالية التربوية في الجزائر تتمثل في سوء التوظيف اللغوي في العملية التعليمية سواء في مؤسسات التنشئة الاجتماعية أو في الجامعات ومراكز البحث العلمي، وتتفرع إلى عدة مشكلات تتعلق بالهوية والتاريخ والواقع الموضوعي للمجتمع من حيث مستواه الثقافي وتنوع لغاته وهشاشة دورها المعرفي، ويقع التعريب على رأس هذه المشكلات، إذ بقي طرحا سياسيا وإيديولوجيا لزمن طويل، في وقت احتاج المتعلم والمعلم على حد سواء إلى الإطلاع على المعارف المستجدة في مختلف العلوم ولا يتأتى ذلك إلا بتعلم اللغات التي تحمل المعارف الراهنة.

من هذا المنطلق فان موضوع اللغة والتعليم هو الرهان الأساسي والتحدي الذي ينبغي لكل مجتمع في الوقت الحاضر أن يواجهه أمام ما تفرضه العولمة من تحديات تمثل في الوقت ذاته خطرا على الهوية والخصوصية لأن "أي تعليم هادف لابد أن يمر حتما بمرحلة تعلم اللغة الوطنية وإتقانها بوصفها مقوما رئيسي للشخصية القومية ومظهرا للسيادة"[37] مقابل التحدي العلمي والحضاري الذي يفرضه مجتمع المعرفة على الصعيد العالمي.

ولم تسلم الجزائر على غرار بقية الدول العربية من موجة العولمة التي فرضها عليها الدخول التدريجي في النظام الاقتصادي العالمي الجديد بعد فترة الاقتصاد الموجه وبالتالي وجدت نفسها أمام

تحديات كبيرة ومتعددة من بينها ضرورة إصلاح المنظومة التربوية التي لم تكن في حالة استقرار نتيجة التناقضات اللغوية الموروثة عن عهد الاستعمار خاصة.

لقد تحتم على الجزائر إعادة النظر في التوظيف اللغوي داخل المنظومة التربوية، خاصة وان كل المؤشرات تؤكد هيمنة النموذج اللغوي والتكنولوجي الأنجلو سكسوني من خلال ما يملكه من قوة عالمية في كل المجالات، ولما كانت المؤسسات الاجتماعية والثقافية والتربوية وكذا النخب في الجزائر قد تكونت إما باللغة العربية أو الفرنسية أو باللغتين معا في إطار فعل التعليم والتكوين، وجدت نفسها في حرج للتكيف مع مقتضيات العالم الجديد، عالم المعرفة الذي تهيمن عليه اللغة الانجليزية، هذه النخب التي كانت ولا تزال تتصارع حول مسالة لغة التعليم أصبحت مهددة في عقر دارها، فيكون التحدي الأخر أمام المنظومة التربوية هو نقل الصراع من المحلي والاثني إلى ضرورة الوعي بالتحديات الراهنة.

إن مسايرة التحديات الراهنة تطلب الاهتمام باللغات الأجنبية على اعتبار أنها المنفذ لدخول عالم المعلوماتية السريعة وتكييفها وفق المتطلبات الوطنية، وإذا كانت المجتمعات المتقدمة إلى عهد قريب تعتبر نموذجا في التكنولوجيا والعلوم، فإن المجال انتقل اليوم إلى النظم التربوية والمعرفية، وأصبحت نموذجا أخر في مجالات البيداغوجيا وعلوم التربية والاتصال وما يرافق ذلك من مناهج تعليمية وأساليب تربوية متطورة.

من هنا يمكن القول أن كل محاولة للتنمية الاقتصادية أو التربوية أو العلمية تتطلب معرفة اللغات التي تحمل هذه النماذج التنموية، فالعولمة من معانيها تقبل الأخر في ثقافته والتواصل معه في لغته، ولا يتم ذلك إلا بتعلم اللغات الحية وإجادتها فلا تعلم دون لغة ولا معلم دون إجادته لتلك اللغة نطقا وكتابة، إذ لم تعد هناك فائدة من تقديس اللغة لذاتها و اجترار الماضي.

***رابعا: الموقف من اللغات الأجنبية:**

إن تدريس اللغات الأجنبية أصبح أمرا ضروريا ومطلبا حضاريا خاصة وأن هذه اللغات كالانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها أصبحت لغات العلم والمستجدات المعرفية، والطالب إذ يتعلم هذه اللغات يضيف إلى رصيده زادا علميا وتواصلا مع الآخرين حتى رصيد النقص المعرفي الذي يعانيه داخل لغته بشرط أن يكون متمكن من لغته الأصلية حتى يستطيع تطوير ملكته اللغوية واستيعاب الوافد عن طريقها، فاليوم لم يعد يعترف بالحدود اللغوية وأصبح من اللازم نقلا لمعلومة والتمكن مهما كانت اللغة التي تحملها، وزاد ذلك تطور وسائل الاتصال والمعلومات، إن تدريس

اللغات الأجنبية لا يؤثر على مستوى التعليم ولا على اللغة العربية بشرط أن يكون المتعلم قد استوعب لغته بماضيها وحاضرها بعد أن يتم تحديثها اصطلاحا ومفاهيمها واستعمالا سليما.

إن علماء اللغة يؤكدون بدورهم أن الفراغ أو الضعف الفكري والثقافي ناتجا عن الفقر في الرصيد اللغوي وبالتالي يكون ضعف الإنتاج والإبداع مرده إلى فقر وضعف في الكفاءة اللغوية ولأن الكلام والتفكير كما يقرر علماء التربية وعلماء النفس ينمو جنبا إلى جنب، وبهذا يكون نقص الإبداع الفكري عائدا إلى مستوى الرصيد اللغوي[38].

إن هذا النقص الذي يعاني منه المتعلم في محصوله اللغوي هو الذي يضطره في الكثير من الأحيان إلى اعتماد اللغة الأجنبية أو الاقتراض من مفرداتها على اعتبار أنها أكبر مكانة وأوسع انتشارا وهيمنة ولعل هذا ما ينشأ عنه تداخل مع لغته الأصلية وينتج الازدواجية اللغوية المضرة أو ما يسمى بالثنائية اللغوية ،"وقد ينجم عن هذه الازدواجية مع مرور الزمن انسحاب اللغة الأصلية أمام الغزو اللغوي الغريب أو اضطراب هذه اللغة وتغيرها"[39]، إن هذا التداخل من شأنه أن يشوش على المتعلم من الناحية الثقافية والنفسية ويؤدي إلى تذبذب فكري وحضاري لدى الناشئة "إن مثل هذا الاختلاف والاختلاط اللغوي من شأنه أن يجعل الفرد في صراع نفسي وثقافي وحضاري دائم فهو لا يدري إلى إي شعب ينتمي و لا إلى أي ثقافة يرجع"[40].

إن فتح المجال أمام تعلم اللغات الأجنبية يجب أن يدرس بعناية وذلك حتى يكون في خدمة المتعلم من حيث هو المقصود بالعملية التعليمية ومراعيا للانتماء الحضاري والثقافي فيشأ جيل يملك اللغة العربية بماضيها وحاضرها، ومتمكن من اللغات الأجنبية لسد نقائصه العرفية.

***خامسا:التعريب وجدلية المعرفي والإيديولوجي:**

الواقع أن الطرح المعرفي لمشكلة تعريب التعليم في الجزائر أو في أي بلد عربي لا يمكن بأي حال من الأحوال عزله عن الجانب الإيديولوجي فيه، ذلك أننا حتى لو افترضنا أننا نؤسس لخطاب معرفي أو علمي منهجي للتعريب، فإننا في الحد ذاته نريد إبراز قيمة اللغة العربية في جوانبها المعرفية، والثقافية، والاجتماعية، وكذا منزلة هذه اللغة وقواعدها في الحياة الفردية والاجتماعية، فالطرح نفسه دعوة إلى تقبل فكرة (مشروع) التعريب والإقبال على اللغة العربية و إلى إزالة كل العوائق الذاتية والموضوعية التي تحد من انتشاره و نجاحه في كل مؤسسات المجتمع، وبهذا نكون إيديولوجيين إزاء ما نعتقد أنه طرحا معرفيا خالصا، لكن هذا لا يعني عدم وجود اختلاف داخل الطرح الإيديولوجي في نسبة تفسيره العلمي للواقع، وبعده عنه" فبعض الإيديولوجيات لا تعتمد

على العلم الحقيقي في مواجهة قضايا الواقع بقدر ما تعتمد على اليوتوبيا أو على تصورات تجريبية شعبية، أو على تصورات شبه علمية"[41]، فمثل هذه الإيديولوجيات غير علمية في تصورها للواقع وتفسيرها له. غير أن هناك فئة أخرى من الإيديولوجيات تعتمد على العلم وتقوم عليه بنسبة معينة في تصورها للواقع وتفسيرها له، وتحديد الهدف وطريقة تحقيقه[42] غير أنها قد تفتقد للمبدأ والآلية، والخطأ وقع فيه دعاة التعريب الحماسي، وهو أنهم فصلوا فصلا تعسفيا بين اللغة كهوية وانتماء، وبين اللغة كوعاء للعلم والمعرفة،ومن غير دراسة للواقع اللغوي،حيث أرادوا دمج عدة عناصر وتكتلات في منحى واحد.

إن جدلية الإيديولوجي والمعرفي داخل أي منظومة فكرية تمثل بناءا علائقيا، حيث لا يمكن وضع حد فاصل بين ما هو إيديولوجي وما هو معرفي، وإذ نتحدث عن اجتماعية المعرفة الإنسانية، فإن هناك ظروفا معينة تجتمع لتحدث الفعل المعرفي داخل البني الاجتماعية، وإذا تعلق الأمر بمسألة التعريب في مجال التعليم والفكر، فإننا قد لاحظنا حضورا إيديولوجيا تعلق دوما بالدعوة إلى الأصالة والقومية العربية والماضي العريق، لكن هل هي إيديولوجيا علمية وتتمتع بفاعلية عميقة وشاملة لكافة الأطر الاجتماعية والثقافية لتؤسس بذلك خطابا علميا إيديولوجيا للتعريب؟.

أصبح الآن من الضروري تجاوز كل الأطروحات المتصارعة إيديولوجيا، والتي لا تخدم اللغة ولا المعرفة التي تأتي عن طريقها، إلى الطرح الموضوعي والذي يهدف أساسا إلى تفعيل التعاون الجدي والمدروس مع لغات العالم المتطور، بغرض الاستفادة من تجاربها وما حققته من ثراء معلوماتي، ونقله بأسلوب انتقائي مدروس في مخابر التربية وليس من طرف الايدولوجي والسياسي، ولن يحصل ذلك إلا بإخراج القضية اللغوية من عند أصحاب الخطاب الديماغوجي والوصولي.

خاتمة:

لقد استخلصنا أن الفاعلية العلمية هي العنصر الذي افتقده دعاة التعريب أمام النجاح الباهر الذي حققته الإيديولوجيات في العالم، والتي تستخدم العلم مطية لها، أما فيما يتعلق بدعاة الموقف الإزدواجي فإن مطيتهم العلم لكنهم يفتقدون لآلياته، وبالتالي يفتقدون الحقيقة الواضحة، ويقرون بالحقيقة المتوهمة والممثلة في اللغة الأجنبية كشرط للحداثة، ومواكبة العصر،فما هو الحل إذن؟ لا يمكن البحث عن الحقيقة في عالم من التوهم، ولكنها على حد تعبير سبينوزا" الحقيقة واضحة

بذاتها" وعليه فإن تأسيس مبدأ واضح حول قضية التعريب هو الأولوية القصوى لتأتي بعده الآليات العلمية والإيديولوجية وفق خطة مرسومة وفق المبدأ بتوحيد الموقف اتجاه لغة التعليم.

إن الانخراط في المنظومة العالمية وما تقتضيه من شروط سياسية وتكنولوجية ومعرفية، تطلب اتخاذ سياسة تربوية تتميز بالعقلانية والدقة، ذلك أن تغليب كفة الهوية وحدها، وتقديس اللغة لذاتها والتفريط في الجانب المعرفي والعلمي هو بمثابة إفراغ للمنظومة التعليمية من محتواها الحقيقي والمتمثل في إكساب الناشئة مهارات ومستوى معرفي يمكنهم من أداء وظيفة داخل المجتمع، ومواجهة مستجدات الحياة والتفتح على الأخر ولعل الملاحظ لمشاهد الواقع اليومي يجد أن موضوع لغة التعلم لم يعد مطروحا بتلك الحدة والتعصب الذي كان في الماضي من الناحية الإيديولوجية والعاطفية، وان كان هناك تفسير فيعود إلى رغبة الأفراد والمجتمع في التعلم والمعرفة، ولما تعددت لغات ومصادر المعرفة توجه إلى هذه اللغات، ووجد المتعلم نفسه مضطرا إلى الانتهال من المصادر المختلفة عبر وسائل الاتصال العصرية كالانترنت والبرمجيات. وتوجه فلسفة الإصلاح إلى نموذج المقاربة بالكفاءات والذي يجعل من التلميذ محور وأساس العملية التعليمية فيكون بذلك مساهما في بناء رصيده المعرفي، يحتم اخذ المعلومة من مصادر مختلفة تتطلب تكوينا لغويا مناسبا لحجم الطريقة المعتمدة وإلا أصبحت مجرد شكل دون محتوى بيداغوجي ومعرفي.

الهوامش:

[1]- أوليفيه ريول ،فلسفة التربية. ترجمة جهاد نعمان .منشورات عويدات.بيروت.باريس ط3 1986.ص6

[2]- ايمانويل كانط.تاملات في التربية.ما الانوار، مامعنى التوجه في التفكير. ترجمة محمود بن جماعة.دار محمد علي للنشر،ط1، تونس.2005 ص5

[3]- اوليفيه ريول، المرجع السابق ص11

[4]- المرجع نفسه ص56.

[5]- جون ديوي.المدرسة والمجتمع ترجمة احمد حسن الرحيم، بيروت دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ص69

[6]- محمد المنجي الصيادي، التعريب وتنسيقه في الوطن العربي

[7]- صالح بلعيد،في النهوض باللغة العربية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر2008 ص44.

[8]- مبارك ربيع، التربية والتحديث، دار الامان للنشر والتوزيع ط1.الرباط2005 ص28.

[09]- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، مركز دراسات الوحدة العربية ط1، بيروت2006 ص.104

[10]- البير مامي،صورة المستدمر، تر، ميشال سطوف، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر الجزائر ص107-112

[11]- المرجع نفسه.ص.108

[12]– المرجع نفسه.ص.112

[13]– محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المرجع السابق ص.103

[14]- Rabeh Sebaa.L'algerie et la langue Française, Editions dar El Gharb .Oran.2002,p 58.59

[15]- IbId.p. 59.

[16]– جلة عالم الفكر،المجلد36، العدد1، الكويت، سبتمبر 2007.ص38

[17]– مجلة دفاتر المخبر.الجامعة الجزائرية والتحديات الراهنة، العدد الثاني الجزائر.سبتمبر 2006 ص.159

[18]– المرجع نفسه ص.142

[19]– مجلة الأصالة.وزارة الشؤون الدينية العدد17–1974/1973 ص.475

[20]– المرجع نفسه.ص.475

[21]– علي القاسمي. التعريب والتنمية البشرية المجلس الأعلى للغة العربية،منشورات المجلس.عدد خاص2009 ص140

[22]– مجلة الأصالة المرجع السابق، ص.475

[23]– محمد غاليم.بعض مقتضيات تمكين اللغة العربية في مجتمع المعرفة.منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.

[24]– المرجع السابق ص213/.241

[25]– المرجع نفسه ص218

[26]– المرجع نفسه ص219

[27]– مبارك ربيع. المرجع السابق ص.40

[28]– عمر مهيبل،من النسق الى الذات .قراءات في الفكر الغربي المعاصر،منشورات الاختلاف ط1، 2001 .ص.77

[29]– عبد الرحمن ابن خلدون.المقدمة.دار ابن الهثم.ط1.القاهرة.2005 ص455.

[30]– محمد عابد الجابري .التراث والحداثة.ص.160

[31]– المرجع نفسه .ص160.

[32]– منشورات المجلس الاعلى للغة العربية.مرجع سابق ص165

[33]– المرجع نفسه ص.283

[34]– المرجع نفسه.ص.92

[35]– المرجع نفسهص..165

[36]– لكحل لخضر اصلاح المنظومة التربوية.مجلة دفاتر المخبر.مرجع سابق ص.184

[37]– عثمان حشلاف التمكن اللغوي أساس تحصيل العلوم الإنسانية. مجلة المبرز.العدد 13جويلية–ديسمبر1999.تصدر عن المدرسة العليا للأساتذة الجزائر ص.42

[38]– احمد محمد معتوق.الحصيلة اللغوية.سلسلة عالم المعرفة(212) الكويت 1996 ص79/78.

[39]– المرجع السابق ص75/74.

[40]– ناصيف نصار،الفلسفة في معركة اليديولوجية،دار الطليعة للنشر، بيروت،ط2، ص18.19